بسم الله الرحمن الرحيم

إِدَارَةُ الْوَقْتِ مِفْتَاحُ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ النَّاجِحِ ٣٠ مُحَرَّمٍ ١٤٤٧هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللهَ حَقَّ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّهَا هِيَ النَّجَاةُ غَدًا وَالزَّادُ أَبَدًا، وَهِيَ النَّجَاةُ مِنَ الْمِحَنِ.

وَاعْلَمُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - أَنَّ فِي مُرُورِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ، وَفِي طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا إِيذَانٌ بِأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا شُرُوقٌ ثُمَّ أُفُولٌ، أَيَّامٌ تُزُولُ، وَأَجْيَالٌ تَتَعَاقَبُ عَلَىٰ دَرْبِ الْآخِرَةِ، هَذَا مُقْبِلٌ وَذَاكَ مُدْبِرٌ، وَهَذَا شَقِيٌّ وَآخَرُ سَعِيدٌ، وَالْكُلُّ إِلَىٰ اللهِ يَسِيرُ، وَالزَّمَانُ وَتَقَلُّبَاتُهُ أَبْلَغُ الْوَاعِظِينَ، وَالدَّهْرُ بِقَوَارِعِهِ أَفْصَحُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَلَئِنْ طَالَتِ الْحَيَاةُ بِأَحْزَانِهَا، أَوْ مَضَتْ بِأَفْرَاحِهَا فَغَايَتُهَا الْفَنَاءُ، وَالنَّاسُ يَعِيشُونَ فِي آخِرِ مَرَاحِلِ الدُّنْيَا. أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ كَانَ وَاقِفًا بِعَرَفَاتٍ، فَنَظَرَ إِلَىٰ الشَّمْسِ حِينَ تَدَلَّتْ مِثْلَ التُّرْسِ لِلْغُرُوبِ، فَبَكَىٰ وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ عِنْدَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَدْ وَقَفْتَ مَعِي مِرَارًا لِمَ تَصْنَعُ هَذَا، فَقَالَ: ذَكَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ بِمَكَانِي هَذَا، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فِيمَا مَضَىٰ مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَىٰ مِنْهُ».

فَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللهِ - أَنَّ الْوَقْتَ ثَمِينٌ بِلَحَظَاتِهِ، وَيَزِيدُ نَفَاسَةً إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سُوَىٰ الْيَسِيرِ، وَاللهُ ﷻ أَقْسَمَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ كَتَبَ اللهُ لَهُ فُسْحَةً فِي الْعُمْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْطَفُهُ الْأَجَلُ سَرِيعًا، وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ عَاشَ فِي لَحَظَاتِهَا لِيَرْتَقِيَ بِهَا إِلَىٰ آخِرَتِهِ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ». وَالنَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ قَصَرَهَا عَلَىٰ مَعَاشِهِ دُونَ مَعَادِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَمَّرَ

آخِرَتَهُ فِيهَا، فَأَدَّىٰ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَاجْتَنَبَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا بِآخَرَ سَيِّئًا مِنْ غَفْلَةٍ وَاتِّبَاعِ هَوًىٰ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا». وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَقْسَمَ أَحَدَ عَشَرَ قَسَمًا بِأَنَّ الْمُفْلِحَ هُوَ مَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ، وَأَنَّ الْخَاسِرَ مَنْ أَوْقَعَهَا فِي الْمَعَاصِي، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

عِبَادَ اللهِ: الْحَيَاةُ مَلِيئَةٌ بِالْمِحَنِ وَالْفِتَنِ، وَقَدْ يَكْبُو الْمَرْءُ فِي زَلَّاتِهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ؛ وَلِذَا كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كُلَّمَا دَنَتِ الْحَيَاةُ مِنَ الزَّوَالِ لَاحَتْ فِتَنُهَا، وَظَهَرَتْ شُرُورُهَا، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اجْتَمَعْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْبَلَاءَ يَزْدَادُ عَامًا بَعْدَ عَامٍ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَىٰ مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّىٰ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ» سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا لَمْ يَمْتَثِلُوا أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَوَقَعُوا فِي نَوَاهِيهِ، اضْطَرَبَتْ أَحْوَالُهُمْ وَمَعَايِشُهُمْ؛ إِذِ الذُّنُوبُ مُذْهِبَةٌ لِلنِّعَمِ، مُزِيلَةٌ لِأَمْنِ النُّفُوسِ وَالْبُلْدَانِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وَأَعْظَمُ بُعْدٍ عَنِ اللهِ: التَّوَجُّهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِالدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالنُّذُورِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنَ الْفِتَنِ: تَقْدِيمُ الْعَقْلِ وَالْهَوَىٰ فِي النَّوَازِلِ وَغَيْرِهَا، وَنَبْذُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِتَحْقِيقِ الْأَعْمَالِ وَالْآمَالِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وَمَا مِنْ نَازِلَةٍ إِلَّا وَلَهَا أَصْلٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. وَلَنْ يُصْلِحَ هَذِهِ الْأُمَّةَ - بِمَا حَلَّ بِهَا مِنِ اضْطِرَابٍ وَفَوْضَىٰ وَكُرُوبٍ - إِلَّا بِرُجُوعِهَا إِلَىٰ رَبِّهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾. وَمَنْ لَازَمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ بَلَاءٍ عَافِيَةً، وَإِذَا أَلَمَّتْ بِالنَّاسِ مُصِيبَةٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. وَالْحَاذِقُ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ كَثْرَةِ الْمُذْنِبِينَ؛ فَإِنَّ اصْطِفَاءَ اللهِ لَكَ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْمَعَاصِي يُوجِبُ عَلَيْكَ التَّمَسُّكَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ؛ إِذْ أَضَلَّ غَيْرَكَ وَهَدَاكَ.

وَعَلَىٰ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الْعَاقِلِ الْحَصِيفِ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ حِينٍ: مَاذَا قَدَّمَ لِآخِرَتِهِ، وَمَاذَا عَمِلَ لِرِضَا الرَّحْمَنِ عَنْهُ، لِيَسْأَلَ نَفْسَهُ عَنْ فَرَائِضِ الْإِسْلَامِ وَعَنْ أَدَائِهَا، وَعَنْ حُقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَعَنْ مَالِهِ كَيْفَ جَمَعَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟!، أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ: اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْقَضِيَ الْآجَالُ وَأَنْتُمْ فِي عَمَلِ اللهِ فَافْعَلُوا.

عِبَادَ اللهِ: لَيْسَتِ الْغِبْطَةُ بِكَثْرَةِ السِّنِينَ وَالنِّعَمِ، إِنَّمَا الْغِبْطَةُ بِالشُّكْرِ وَكَثْرَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِخْلَاصِ؛ فَعُمْرُ الْإِنْسَانِ عَمَلُهُ. قِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا-: كَيْفَ رَأَيْتَ هَذِهِ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: «كَدَاخِلٍ مِنْ بَابٍ وَخَارِجٍ مِنْ آخَرَ». فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَاتِهَا؛ فَجَمْعُهَا عَنَاءٌ، وَنَعِيمُهَا ابْتِلَاءٌ، وَاغْتَنِمُوا مَا بَقِيَ لَكُمْ مِنَ النِّعَمِ الْخَمْسِ: الشَّبَابَ قَبْلَ الْهَرَمِ، وَالصِّحَّةَ قَبْلَ الْمَرَضِ، وَالْغِنَىٰ قَبْلَ الْفَقْرِ، وَالْفَرَاغَ قَبْلَ الشُّغْلِ، وَالْحَيَاةَ قَبْلَ الْمَوْتِ.

وَالْمُحَاسَبَةُ الصَّادِقَةُ مَا أَوْرَثَتْ عَمَلًا صَالِحًا، وَتَحَوُّلًا عَنْ مَعْصِيَةٍ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْ نَفْسِهِ تَصَرَّمَتْ أَوْقَاتُهُ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ حَسَرَاتُهُ، فَاسْتَدْرِكُوا مَا فَاتَ بِمَا بَقِيَ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَىٰ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْمُحْسِنُ مَنْ كَانَ يَوْمُهُ خَيْرًا مِنْ أَمْسِهِ، وَغَدُهُ خَيْرًا مِنْ يَوْمِهِ، وَاغْتَنَمَ الْحَيَاةَ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ، وَشَغَلَهَا بِالطَّاعَاتِ، وَنَأَىٰ بِهَا عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَاتَّعَظَ بِمَا فِيهَا مِنْ تَقَلُّبَاتِ الْأُمُورِ وَالْأَحْوَالِ، وَكَانَ حَذِرًا مِنَ الِاغْتِرَارِ بِالسَّلَامَةِ وَالْإِمْهَالِ وَالْآمَالِ، فَمَا أَسَاءَ أَحَدٌ الْعَمَلَ إِلَّا مِنَ التَّسْوِيفِ وَطُولِ الْأَمَلِ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ كَفَاهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ صَدَقَ فِي سَرِيرَتِهِ حَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ، وَالْعَبْدُ إِذَا أَنَابَ إِلَىٰ اللهِ مِمَّا اجْتَرَحَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَالْتَمَسَ عَفْوَهُ وَرِضَاهُ، وَطَمِعَ فِي وَاسِعِ رَحْمَتِهِ وَعَطَايَاهُ؛ أَعْطَاهُ الرَّبُّ بِإِذْنِهِ فَوْقَ مَا يَتَمَنَّاهُ.